الأستاذ الدكتور الشيخ : يوسف حامد العالم (العلم الأمة)

الرجل القوي في قول الحق، الأمين في محض النصح، الحفيظ على أمانة العلم، والعليم بالأمر بالمعروف والدعوة إلى الخير، العلم الأمة (الأستاذ الدكتور يوسف حامد العالم).

كانت من بصيرته: رؤية أن تصبح كلية القرآن الكريم بإذن الله أول جامعة للقرآن الكريم في العالم وقد صدقت الرؤية بصدق الرجل .

(من كلمة أ.د. سليمان عثمان محمد – مدير جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية – بمناسبة مرور ربع قرن على تأسيس كلية القرآن الكريم)

إعداد : أ. نهى حامد عبد الرحمن

وُلد الشيخ يوسف العالم عام ١٣٥٢هـ الموافق له ١٩٢٨م بإقليم كردفان، بقرية التكيلات، إحدى قرى مدينة « أبو زبد» حاضرة إقليم كردفان، تزوج الشيخ يوسف العالم من سنار وكان زواجه عام ١٩٦٧م، ورزق من عند الله بثمانية أبناء، أربعة ذكور وأربع إناث، كلهم بحمد الله تعالى في علومهم مبرزون، وفي أعمالهم موفقون، وأغلبهم علميون، عدا اثنين كانت دارستهم نظرية وكلها مجالات تخدم الأنام، بتوفيق العلام.

تفتحت عينا الشيخ يوسف العالم على القرآن الكريم في خلوة التكيلات، قرية والده، فبدأ الحفظ على يد الشيخ عبد الله أبي أيديه، ثم انتقلت الأسرة عام ١٩٣٣م من قرية التكيلات منشأ الأسرة إلى قرية الميعاية، ثم انتقلت بعد ذلك إلى قرية ود العلم، وفي ود العلم تلقاه شقيقه الأكبر، احمد حامد العالم، فاعتنى به حتى قرأ القرآن كله ثم أعاده إلى سورة المائدة، ثم انتقل إلى خلوة الفكي يعقوب أبو هاشم بالهشيمة على بعد ٤ كيلو مترات من ود العلم، ومكث يوسف العالم في هذه الخلوة زمناً طويلاً حتى عام ١٩٤٥م، أتيح له خلالها أن يحفظ أجزاءً مقدرة من القرآن الكريم. يقول الشيخ مصطفى الصديق « إن يوسف العالم ترك الميعاية مهاجراً للعلم طالباً له، فمر بمدينة « أبو زبد» وطيبة وانتهى به الأمر إلى النهود، واستقر به المقام عند شيخ جديد، ولكنه سمع أنّ إخوته قادمون إليه ليرجعوا به إلى قريته، فطلب من الشيخ أن يأذن له بمواصلة رحلته العلمية إلى الفاشر، فأذن له وأعطاه خطاباً إلى معارفه بالفاشر، لكنه لم يجد بغيته في الفاشر، فغادر إلى منطقة كبكابية، ثم إلى الجنينة ومنها إلى تشاد، ليطلع على علم علمائها، ويمازج بينه وبين ما تعلمه من أهل منطقته، وكذلك حتى يتفرغ التفرغ التام للقرآن الكريم والتحصيل العلمي؛ حيث إن وجوده بين أهله يضطره للزراعة والرعي، فيؤثر ذلك على التحصيل. والشيخ يوسف العالم صاحب طموح تجاوز منطقته بمحدودية علمائها، فنما إلى علمه وجود علماء نهلوا من الأزهر الشريف واستقروا في تشاد، فتسلل الشيخ يوسف العالم تسلل القطا من خلوة الهشيمة إلى تشاد، وعمره لم يتجاوز حينها الخامسة عشر، وعند وصوله تشاد حط رحله بقرية أبّشي شرق تشاد في خلوة كبيرة عند السلطان احمد توراني، فأكمل

حفظه للقرآن الكريم ودرس الفقه المالكي، فأنهي متونه ومختصراته، ودرس أيضاً علوماً أخرى كعلم التوحيد ونحوه من العلوم الأخرى التي لها صلة بالفقه، لم يمنعه تعلمه لعلوم الشرع من أن يستفيد مما حوله من معارف أخرى فتعلم شيئاً من الفرنسية وبعض اللهجات الأخرى كلهجة البرقو؛ مما جعل السلطان أحمد توراني يعجب بالفتى يوسف العالم لما وجد فيه من حب للعلم ورغبة أكيدة في الاستزادة والحرص على حفظ القرآن.

هكذا ظل الفتى في تشاد حتى بداية عام ١٩٥١م، حيث قرر بعدها العودة إلى قريته ود العالم. يقول شقيق الشيخ وهو عبد الرحمن حامد العالم : «عاد يوسف وهو يحفظ القرآن الكريم ويجوده، ويحفظ مختصر خليل عن ظهر قلب، ويتحدث شيئاً من الفرنسية، وبعض اللهجات المحلية كلهجة البرق، وعاد برفقته أربعة من الحيران، استقبله أهله باحتفال جامع ضم عدداً كبيراً من أهل لمنطقة، فنحروا له ومدحوا المصطفى (صلى الله عليه وسلم)، فرحاً بسلامة عودته» وكانت أول أعماله في منطقته فتح خلوة لتحفيظ القرآن الكريم في نفس العام»١٩٥١م» ضمت أكثر من ثلاثين طالباً وطالبة من أبناء إخوته، وبعض أبناء القرى المجاورة، وهذا مؤشر لإخلاصه في علمه وطلبه مرضاة الله وتوثيقه لخدمة كتاب الله.

وفي العام ١٩٥٢م، التحق الشيخ يوسف العالم بمعهد التكينة، وكان يوسف طالباً في بعض المواد التي لم يدرسها في تجواله، وفي ذات الوقت معلماً للفقه، ومن ثم ذهب الشيخ يوسف إلى مصر والتحق بمعهد القاهرة الديني الثانوي العالي، وهو يعتبر معهداً نموذجياً يجمع المواد الشرعية والعربية، والمواد العلمية الحديثة، ومدة الدراسة فيه خمس سنوات، وتخرج فيه سنة ١٩٥٩م، وكان سادس الدفعة، وفي نفس العام التحق الشيخ يوسف بكلية الشريعة والقانون، بجامعة الأزهر الشريف، ومدة الدراسة بهذه الكلية خمس سنوات أيضاً، درس فيها جميع فروع الشريعة الإسلامية وأصولها، وجميع فروع القوانين الوضعية، بجانب المقارنات بين الشريعة والقانون، وبين الإسلام والأديان والشرائع السابقة، وفي العام ١٩٦٣م، تخرج في كلية الشريعة والقانون بتقدير (جيد جداً) مع المرتبة الثانية، ومنح الشيخ يوسف العالم الجائزة الأولى للمتفوقين في ذلك العام في الجامعات المصرية، وحصل على شهادة الامتياز. يقول الشيخ يوسف العالم عن نفسه: ((في العام (١٩٦٤–١٩٦٥م) التحقت بكلية التربية بجامعة الأزهر وحصلت على دبلوم عالٍ في التربية وعلم النفس، وكان بتقدير جيد، وفي نفسٍ العام كنت بالدراسات العليا الماجستير، بشعبة أصول الفقه الإسلامي ، وحصلت على نهاية العام على دبلوم في الأحوال الشخصية للمسلمين وغير المسلمين، ثم عدت إلى السودان بسبب وفاة الوالد، وعينت بالمدارس الثانوية العليا، وذهبت إلى سنار الثانوية، وكنت أرجع في الإجازة إلى مصر لمواصلة الدراسة، وكنت أقوم برئاسة شعبة التربية الإسلامية بمدرسة سنار الثانوية العليا)) .

وفي عام ١٩٦٧م، أعلنت جامعة أمدرمان الإسلامية عن حاجتها لمعيدين في مواد العلوم الشرعية ، وتقدم الشيخ يوسف العالم لها، ووقع الاختيار عليه، وبعد ذلك ابتعث من قبل الجامعة للتحضير للدراسات العليا « الدكتوراة» وبعد حصوله على الدكتوراة عاد إلى السودان في ١٩٧١/٧/٩م بكلية الدراسات العربية والإسلامية، وفي عام ١٩٧٦م عين الشيخ عميداً لكلية الدراسات الاجتماعية بجامعة أمدرمان الإسلامية .

الموت سر من الأسرار التي حيرت الألباب، وأذهلت العقول،فهو يتعلق بالروح، والروح من أمر الله، وهو سنة الله المبدىء والمعيد، فما من مخلوق طال عمره، إلا وهو نازل به أجله وخاضع لسلطانه، فالموت حتم لا حيد عنه ولا مفر منه «أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم في بروج مشيدة» سورة النساء (آية ٧٨) .

أصيب الشيخ يوسف بعلة أشار عليه الأطباء على إثرها بالسفر للعلاج خارج السودان، وذلك في يونيو ١٩٨٨م، فسافر إلى باريس عاصمة فرنسا لتلقي العلاج هناك، وفي صباح يوم الخميس ٢٧ من محرم ١٤٠٦هـ الموافق له ١٩٨٨/٩/٨م، أصيب بداء بطن عصيب صاحبه ألم شديد في المستشفى بباريس، وظل على هذه الحال حتى قبضت روحه الميمونة من فجر يوم الجمعة ٢٨/ من شهر الله المحرم ١٤٠٩هـ الموافق ١٩٨٨/٩/٩م وانتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً عنه بإذن ربه، وصل جثمانه إلى السودان مساء الاثنين ليلة الثلاثاء ٣/صفر ١٤٠٩هـ الموافق له ١٩٨٨/٩/١٣م وتحرك موكب الجثمان من مطار الخرطوم في موكب مهيب كبير لم تشهده العاصمة القومية من قبل، وكيف لا يكون ذلك والعلماء هم الحكام، والشيخ يوسف العالم رحمه الله كان من العلماء العاملين بعلمهم، فلا يكذب فعله قوله، ويخالف ظاهره باطنه، فهو من الدعاة القدوة، أعمالهم ترجمان لدعوتهم، وعندما يكون الإيمان نابعاً من القلب، وليس مجرد قضية يرددها اللسان، أو تجارة يمضي بها بين الأنام فان الائتمار بما يأمر به الداعية، والتخلق بما يدعو إليه أوقع في نفوس السامعين، وأقرب إلى أذعان الراغبين، كان قدوة في فكره، قدوة في سلكه، وفي الصبر والحكمة، قدوة في الصدق، وقد اشتهر بالأمانة، وكان غيوراً على الحرمات .